(١٠)

أوسع وأكثر اتساعًا

يا أرض الأمل والمجد يا أم الحرية
كيف يمكن أن نبجلك، نحن الذين ولدتنا
سوف تتسع حدودك أكثر فأكثر
فالرب الذى جعلك عظيمة سوف يجعلك أكثر عظمة(*)

إن مثال الشعب المختار ليس مجرد تعبير مجازى؛ إذ إنه كان يصف كيف كان الناس يتصرفون فى الماضى، ولكنه أيضًا يوصى بكيفية ما يجب أن يكون عليه تصرفهم فى المستقبل. وقصيدة «أرض الأمل والمجد» توضح هذا المثال فى أدائه. فقد كانت القصيدة مكتوبة لتكون نشيدًا وطنيًا لانجلترا، ولا بد أنها كانت ستبدو مناسبة مثل - وربما أكثر فى أيامنا هذه - نشيد وطنى للولايات المتحدة الأمريكية؛ إذ إن تاريخ انجلترا على مدى ما يزيد على أربعة قرون، وتاريخ أمريكا على مدى ما يزيد على ثلاثة قرون، هما قصة مجتمعين يعيشان تحت تأثير هذه الفكرة الهادية القوية. ولم يكن مصدرها البروتستانتية وحدها، ولكن الوطنية البروتستانتية، والرغبة فى تعريف مجتمع وطنى بأنه جاء إلى الوجود؛ لأن الرب أراد له أن يفعل ذلك؛ لأنه كان له غرض لهذا المجتمع. **وإذا كان البروتستانت قد رفضوا سلطة الكنيسة فى أمور الدين، فإنهم استقوا تعاليمهم الدينية من الاتجاه**

(*) كلمات إيه. سى. بنسون.

الآخر الوحيد المتاح أمامهم، صفحات النصوص المقدسة. وفيها وجدوا تاريخ الإسرائيليين القدماء الذين صاروا أمة مقدسة بإرشاد الرب، وعدّلوا تلك القصة بحيث تناسبهم. هكذا فعلت أول دولة وطنية مستقلة تمامًا فى التاريخ الحديث، وهى مملكة انجلترا تحت حكم هنرى الثامن سنة ١٥٣٥م.

وعلى مدى زمن طويل كان هذا الشكل من الوطنية البروتستانتية يُؤخذ على أنه شىء ليس أقل من المسيحية نفسها. إلا أنه مع نهاية القرن العشرين كان معظم المتحدثين باسم التيار الرئيسى فى المسيحية البروتستانتية فى كل من البلدين، قد توصلوا إلى اعتبار الوطنية البروتستانتية - كما وصفناها - انحرافًا عن نقاء الحقيقة المسيحية. وبقدر ما كان هناك أى شىء على كوكب الأرض يحظى بالاعتراف بأنه «الجيل المختار والقساوسة الملكيون، والأمة المقدسة، وشعب مخصوص» حسبما فى رسالة بطرس الأولى، فإنهم كانوا سيقولون: إنها تلك الكتلة الخفية عديمة الشكل من المؤمنين المسيحيين من جميع الجنسيات والمذاهب التى انضمت لبعضها البعض. ولكن تلك نظرة حديثة نسبيًا يرجع تاريخها بقدر كبير إلى تلك الفترة التى طورت المسيحية البروتستانتية فيها بناءات عالمية مثل مجلس الكنائس العالمى (الذى تأسس سنة ١٩٤٨م)، والطائفة الأنجليكانية (كان أول مؤتمر فى لامبث قد عُقد سنة ١٨٦٧م). وقبل ظهورهما، كان السائد عمومًا أن على كل طائفة بروتستانتية أن تكون لها جذورها فى بلادها. وكان هذا أحد الموضوعات التى ميزت البروتستانتية عن الكاثوليكية.

ويتضح من التاريخ أن الأفكار الدينية عمومًا ثابتة وأن تحولها لا يتم سوى بصورة بطيئة. فهى تتصرف مثل تيارات المحيط العميقة الخفية التى تنقل ملايين الأطنان من الماء إلى مسافات هائلة، تصل فى بعض الأحيان إلى نصف كوكب الأرض، ولا تصدر عنها سوى إشارة صغيرة إلى وجودها عند السطح، إلا أنها تسيطر على المناخ، كما أن الاضطراب الدائم فى نموذج تدفقها قد يغير مصير قارات بأسرها ويغيّر الظروف المعيشية لأمم بأكملها. فما هو مرأى على السطح هو الموجات والانكسارات الصغيرة التى ترجع إلى حد كبير لتأثير الرياح

والطقس، ولكنها قد تعطى انطباعًا مضللاً بما يحدث فى الأعماق البعيدة. وهذا تعبير مجازى مفيد بالنسبة للأفكار الدينية، ومثال الشعب المختار فى الوطنية البروتستانتية يمكن اعتباره أحد التيارات فى أعماق المحيط، فربما لا تكون مرئية عند السطح. وحتى العواصف العنيفة قد لا تؤدى إلى اضطراب هذه التيارات، ولكن يحدث أحيانًا، ولأسباب غامضة، أن تتغير هى بنفسها. ويصدق هذا أيضًا على الدين، فمن ذا الذى يعرف السبب فى أن الاسكتلنديين المحليين اعتنقوا حركة الإصلاح البروتستانتية، وأن الأيرلنديين الوطنيين لم يفعلوا؟

ومبدأ ماكس ڤيبر بأن القناعات الدينية الواضحة لجيل بعينه عادة ما تصير هى الفروض الضمنية غير المختبرة للجيل التالى، يعنى أن مثال الشعب المختار ربما يستمر فى تشكيل عادات الفكر ونماذج السلوك، بعد أن يكون الناس قد فقدوا اتصالهم بأصول هذه المؤثرات بزمن طويل. فهى، على حد تعبير المشاة البريطانيين فى الجبهة الغربية «هناك لأننا هناك لأننا هناك لأننا هناك .. إلخ». ونادرًا ما يكون هناك انكسار حاد فى المعتقدات أو الممارسات الدينية بين جيل ما وجيل آخر يليه. وعلى العكس، فإن المعتقدات ستبقى غالبًا مستمسكًا بها حتى بعد أن تكون قد فقدت أى علاقة لها بالواقع. وهناك مناطق من الريف الإنجليزى ما تزال تلح فى طلب قسيس ليقوم بالصلاة عندما يعانى شخص ما سكرات الموت؛لأن «هذا ما تفعله» حتى على الرغم من أن كنيسة انجلترا ليست لديها طقوس خاصة بسرير الموت، ولكن هذا ما كانوا يفعلونه قبل حركة الإصلاح الدينى، وتستمر العادة حيَّة. ويوم الجمعة يوم مزدحم فى محلات «السمك والبطاطس ـ Fish and Chip» فى انجلترا، حتى على الرغم من الامتناع الإجبارى عن أكل اللحم فى يوم الجمعة قد ألغته حركة الإصلاح الدينى. ومرة أخرى، كان هذا ما يفعلونه قبل حركة الإصلاح الدينى، ومرة أخرى تستمر العادة حيَّة.

وربما كان الأمر يبدو واضحًا أن شرطًا ضروريًا للإيمان بأن الأمة التى ينتمى المرء لها هى الأمة المختارة، مثل اليهود فى العهد القديم، هو الإيمان بالرب، إذ لا يمكن أن يكون المرء مختارًا من الرب إذا لم يكن هناك رب. بيد أن هذا ليس

كذلك بالضرورة؛ إذ إن الكائنات البشرية ليست منطقية هكذا. فتوماس هكسلى، مثلاً، الذى كان واحدًا من كبار العلماء فى القرن التاسع عشر وكان طوال حياته مدافعًا وداعية لنظريات تشارلز داروين، كان يؤمن بأنه مكلف بمهمة أن يستبدل المسيحية بالعلم، أو بتحديد أكثر أن يحرم المؤسسة الأنجليكانية من وضعها المختار فى المجتمع الإنجليزى ويستبدلها بكنيسة علمية، على حد تسميته. كانت نغمته إنجيلية، بل إن التنميط البروتستانتى كان ضمن قضيته. وفى محاضرة ألقاها سنة ١٨٥٥م وبَّخ سامعيه (أو الجماعة المسيحية)؛ لأن «عصر الأوثان هذا» كما قال «ينصت إلى صوت الرب الحى يرعد من سيناء العلم، وينسى مباشرة كل ما سمعه؛ لكى يتمسح فى خرافاته الخاصة، ولكى يعبد العجل الذهبى للتقاليد، ولكى يصلى ويصوم حيث ينبغى أن يعمل ويطيع، وأن يضحى بأولاده للإله بعل اللاهوتى كما كان يحدث قديمًا». وتمادى إلى درجة خلق المعادل لمدارس الأحد، حيث يغنى الأطفال الترانيم العلمية المعادلة للترانيم الدينية، وأسس متحف الفن الطبيعى فى لندن باعتباره المعادل العلمى للكاتدرائية. وصك مصطلح «اللاأدرية ـ Agnostic»، الذى يعنى الفرد الذى لا يدرى إذا ما كان هناك رب أم لا، ولكن إذا حكمنا بالآراء الدينية التى عبر عنها فعلاً، فقد كان ملحدًا حقًا. وملحد يؤمن بالقدر قد يبدو أمرًا متناقضًا، بيد أن ذلك لم يكن يزعجه. وفكرة أن انجلترا لها قدر أن تكون الأمة الرائدة علميًا فى الدنيا، وهى فكرة مستمدة من إسحاق نيوتن، كانت تبدو طبيعية تمامًا بالنسبة له. قُيِّض لكليهما أن يكون رئيس الجمعية الملكية، التى كان يسرها أن تعتبر نفسها المنظمة العلمية الأولى فى العالم.

كان نيوتن واحدًا من أبطال مذهب التوحيد فى الألوهية الذى كان يؤمن بأن الكون، ربما يكون قد شُيد كما لو كان على يد صانع ساعات إلهى ـ أداره ثم تركه يعمل. هذا الرجل العلمى الممتاز كان خبيراً بتصميم الساعة الإلهية، إلا أن تلك كانت طريقة واحدة فقط لقضاء أمسياته فى القرن السابع عشر، وكانت الأمور الأخرى التى تستحوذ عليه هى التأمل فى أسرار نبوءات الكتاب المقدس، بما فى

ذلك محاولة معرفة نهاية الزمان من فقرات غامضة فى سفر دانيال. وأى وقت زائد كان يقضيه فى التآمر وتدبير المكائد إما لإقصاء الكاثوليك عن كامبريدج (وكان واحد منهم يرغب فى أن يسجل لدرجة البكالوريوس)، أو كيف يبعد دوق يورك عن عرش انجلترا. وكان نيوتن مقتنعًا بأن قدره هو أن يقود انجلترا لكى تصبح الأمة الأولى فى البحث العلمى، ومن ثم تكون الأمة الأولى فى حضارة العالم، وتنبأ بهذا المصير فى صفحات العهد القديم والعهد الجديد. كان شخصًا مختارًا فى وسط الشعب المختار، وكان على قناعة أيضًا بأن قدره الشخصى والوطنى سوف يلحق به الدمار إذا تسامحت انجلترا مع الكاثوليكية.

وفى اتساق مع الرأى العلمى المحترم، رأى أن البابا مثل المسيح الدجال، وتاريخ العالم الذى كان يقبله شخصيًا، والذى أبعده قليلاً عن رفاقه من البيوريتان، هو أن الفساد الكاثوليكى قد بدأ، على حد قوله، بإدانة البابوية للهرطقة الآريوسية (على اسم آريوس، منشق مسيحى من القرن الثالث). وسمّى نفسه آريوسيا ومن ثم لم يقبل ألوهية المسيح، والواقع أنه لهذا السبب كان عليه أن يحصل على إعفاء ملكى من القسم قبل أن يتولى كرسى الأستاذية فى كامبريدج. كان رجل القدر هذا، على مدى ثلاثمائة سنة فى انجلترا وأمريكا، النموذج الراسخ للعالم السوبر (كان توماس چيفرسون، الموحِّد الشكاك، وثالث رئيس لأمريكا، متأثرًا بكتاب نيوتن حول التطبيق الحقيقى للأدب المعلق برؤيا دانيال ونهاية الدنيا على العالم الحديث لدرجة أنه أمر بطباعة طبعة جديدة على حسابه).

وهكذا فإن الإيمان بالرب المسيحى ليس ضروريًا، على الرغم من أنه يساعد. ومن ثم، فإنه ليس هناك سبب واضح فى أن الليبراليين اللاأدريين فى الولايات المتحدة لا يستطيعون تصديق أن الأمريكيين هم شعب الله المختار، على الرغم من أنهم، كما لاحظنا فعلاً، ربما يفضلون وصف هذه العقيدة بالمصطلح الأكثر أكاديمية واحترامًا وإيحاء بالحياد، وهو الاستثنائية الأمريكية. وينطبق هذا أيضًا على الاشتراكيين الإنجليز قبل وبعد الحرب العالمية الثانية والذين أرادوا أن يبنوا ما يسميه كوريللى بارنيت فى كتابه المسمى« The Audid Of War»، القدس

الجديدة. وكان بعضهم «لا أدريين» أو ملحدين، ولكنهم كانوا يشتركون فى الرؤية اليوتوبية والألفية، فى الواقع، للاشتراكيين المسيحيين. وربما يمكن أن نعدهم، من ثم، جزءًا مكملاً من مشروع الشعب المختار حتى ولو لم يكونوا يؤمنون بإله يقوم بمثل هذه الاختيارات.

ولكن إذا لم تكن أيديولوچية الشعب المختار تستند بصرامة على العقيدة الدينية، فإنها تعتمد بالتأكيد وبدرجة أكبر كثيرًا على نمط بعينه من الوطنية. وخصائص الشعب المختار الكاملة التى حددها العهد القديم تصف أمة أو شعبًا يلقى المكافأة حين يبقى على إخلاصه، ولكنه إذا انحرف فعليه أن يتوقع العقاب بالفشل أو بالهزيمة (ربما يكون ذلك أصل «الدروس المستفادة للمرء» بعد الجلد الشديد بالسياط). ومن ثم فإن الأمة التى لا تبدى سوى القليل فى سبيل إرضاء الرب ستكون تافهة غير مقنعة إذا ما ادّعت أن الرب يقف إلى جانبها. ومن ناحية أخرى فإن الأمة التى تتمتع بالنجاح يمكن أن تقنع نفسها بسهولة أنها تستدفئ بالعناية الإلهية الرحيمة.

ذلك ما كان بالتأكيد مزاعم قابلة للتصديق من جانب الإنجليز (أو البريطانيين حتى يكون الأمر أكثر كمالاً) حتى الحرب العالمية الأولى. وكان ذلك عندما زحف أول شك كبير إلى الداخل. وليست هناك مقاييس إحصائية يمكن من خلالها رسم خارطة التدهور فى الثقة الوطنية بتعريف الهوية الإنجليزية على أساس فكرة الشعب المختار. بيد أنه ربما يفترض أن مثل هذه الإحصائيات، إن وُجدت، كان لا بد أن تضمحل سنة بعد أخرى منذ نهاية الحرب العالمية الأولى؛ لأن الدليل على عمل العناية الإلهية الرحيمة كان يضعف باطّراد سنة بعد أخرى. وقد يُفترض أيضًا أن مثل هذه الإحصائيات سوف تتخذ نموذجًا مشابهًا جدًا لإحصائيات عضوية كنيسة انجلترا التى أوردها آلان ويلكنسون فى كتابه الذى يحمل عنوان: «The Church of England and The First World War»، وبعبارة أخرى: «تدهور مطرد قاس على مر السنين». ومن الواضح أن هناك علاقة وطيدة تربط بين الاثنين. فقد حدث شىء فى تلك الحرب، حسبما يستنتج ويلكنسون، لم تشفَ منه كنيسة انجلترا أبدًا.

والواقع، أن السلطة التى تحتاجها كنيسة وطنية لكى تكون قادرة لكى تبشر بالإنجيل بطريقة إجبارية، لا تقوم على مجرد خصائصها الخاصة، ولكن على خصائص الأمة التى ترتبط بها (والتى تزعم أنها تمثل الوجه الروحى لها). والأمة القوية لا بد أن تكون لها عقيدة قوية؛ وسوف يبدو المزيج صلبًا بما يكفى لأن يكون مقنعًا. والأمة الإنسانية الخالصة ستكون لها كنيسة إنسانية خالصة، ولن تمر الكثير من المساندة بينهما فى اتجاه دون الآخر. ووفقًا لاستطلاع أجراه «المركز الوطنى للبحث الاجتماعى ـ National Centre for Social Research»، نشر سنة ٢٠٠٠م، زعمت نسبة ٤٨ فى المائة فقط من الناس فى المملكة المتحدة أنهم ينتمون إلى أية ديانة، مقارنة بـ ٨٦ فى المائة فى الولايات المتحدة. ونسبة الحضور فى صلوات كنيسة انجلترا يوم الأحد نقصت عن مليون علامة للمرة الأولى أواخر التسعينيات من القرن العشرين. وليست مصادفة أن كنيسة انجلترا قد سعت، فى الفترة التى يشملها البحث، إلى أن تدعم ثقتها بنفسها عن طريق تعظيم دورها ككنيسة أم للطائفة الأنجليكانية وكذلك عن طريق لعب دور«أحسن صديق» للقوة الروحية العظمى فى العالم الحديث، أى الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، تمامًا مثلما أفادت السياسية الخارجية البريطانية كثيرًا مما يسمى «العلاقة الخاصة» مع القوة العظمى المادية عبر الأطلنطى. وأولئك الذين لاحظوا رئيس الوزراء تونى بلير يقف إلى جانب الرئيس بيل كلينتون فى احتفالات الأمم المتحدة بالألفية الثانية فى نيويورك سنة ٢٠٠٠م، ربما يكونون قد لاحظوا أيضًا كبير الأساقفة جورج كارى يقف إلى جوار البابا يوحنا بولس الثانى فى احتفال مماثل فى روما ـ وبكلمات البروتوكول فى مثل هذه الأحداث، هو فى موضع تشريفى، ولكن فى كلمات الحقيقة يلعب دورًا ثانويًا ـ أو، لكى نكون صرحاء، يستدفئ بانعكاسات المجد. وهل هناك أى عجب فى أن الشكلين الصريحين للانحياز اللذين يواجههما الإنجليز عمومًا وإلى الآن والذين تعلموا مراعاة الحرص فى لغتهم بالنظر إلى المجموعات العرقية أو العنصرية أو الدينية الأخرى، هما نزعة معاداة الأمريكيين ونزعة معاداة الكاثوليك؟ هل هذا هو الحصرم الذى يتذوقه من جاء البديل ليحل محله؟

أما أمريكا، فعلى النقيض، ما تزال تحكى قصة تحظى بالتصديق عن أنها «الشعب المختار»، ويكاد يكون العامل الوحيد الذى يحول بيننا وبين إسباغ ذلك اللقب عليها مباشرة هو الشك المؤرق بأنه فى الحقيقة لا يوجد شعب مختار على الإطلاق، وأن الرب (إذا ما اتفقنا على أن هناك ربًا) لا يعمل بهذه الطريقة. وربما لا يهم كثيرًا إذا ما كان الأجانب يوافقون على أن أمريكا هى الشعب المختار، أما ما يهم من حيث العائد فهو ما إذا كان الأمريكيون أنفسهم يصدقون ذلك؛ إذ إن الاختيار إلى حد كبير حالة يضع المرء نفسه فيها وتحقيق ذاتى للنبوءة. ومن الواضح أنهم يصدقون، إذا لم يكن بالطريقة التنميطية البروتستانتية التقليدية المستمدة من الكتاب المقدس التى عرفتها الأجيال السابقة، فإنها مستمدة إذن منها بشكل وثيق (و ربما بعد أن جردوها من بعض التزاماتها غير المريحة).

ويتصل مثال الشعب المختار إلى درجة عالية بمشكلة العلاقات العنصرية والاندماج العنصرى فى كل من البلدين. والعنصر ليس حقيقة علمية من حقائق الحياة ولكنه بناء إنسانى؛ فهناك عنصر واحد فقط بالمعنى البيولوچى، وهو«الجنس البشرى». وكان «العنصر» يستخدم بصورة تكاد تكون تبادلية مع «الشعب» فى القرن التاسع عشر، وكان يشير لا إلى مجرد الخصائص الچينية المتوارثة فقط ولكن إلى الثقافات المشتركة، والمعتقدات والذكريات. وقد أخذ العنصر معناه الحديث فقط تحت تأثير الداروينية الاجتماعية والنظرية الچينية الباكرة، عند مطلع القرن العشرين. وهكذا، فإن الشعب كمصطلح يصف الجماعة الوطنية، هو الفكرة الأقدم، وأولئك الذين ينظرون إلى العهد القديم بحثًا عن نموذجهم الاجتماعى سوف يجدون وفرة من الأمثلة لمفهوم «الشعب» المستخدم للتفرقة بين «نحن»و«هم»، وفى معظم الأمثلة التفرقة بين العبرانيين ومختلف قبائل الكنعانيين - حتى إلى حد القول بأن «نحن» ربما نجعل «هم» عبيدًا لنا. وفى اللغة المعاصرة، وبسبب النسب الأموى - (يكون الفرد يهوديًا إذا كانت أمة يهودية) فإن هذا التحديد لـ «نحن» هو أيضًا تحديد عنصرى.

ومن ثم فإن مفهوم «الشعب المختار» يمثل مخاطر عظيمة على العلاقات

العنصرية، ومن المؤكد أن هذا هو أصل الشكوك الإنجليزية حول ما إذا كان الشخص الأسود أو الآسيوى يمكن أن يكون إنجليزيّا حقّا. ومجرد الاعتراف بأنهم بريطانيون ليس يكفى؛ لأن هذا تعريف ردىء بأكثر مما يجب، كما أنه ليس دالاً بما يكفى (خاصة حين يقلل الاسكتلنديون والويلزيون وغيرهم كثير فى شمال أيرلندا من أهمية العنصر «البريطانى» فى هويتهم، ويؤكدون على العنصر الاسكتلندى والويلزى والأيرلندى). والإنجليز يرغبون حقّا فى أن تكون لهم علاقات عنصرية طيبة، والحقيقة أنهم سيفضلون أن يكونوا مثالاً للأمم الأخرى فى هذا المجال؛ ولذلك فإنهم كلما تعلقوا أكثر بماضيهم كشعب مختار، كلما كان ذلك أصعب. ويطرح هذا تحديًا قويّا أمام مؤسستين إنجليزيتين على وجه الخصوص، الملكية وكنيسة انجلترا؛ لأن هويتهما الماضية مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بمثال الشعب المختار عن الإنجليزية، وإذا لم تكونا حريصتين، فإن وجودهما سيكون عنصريّا من الناحية الدستورية. وبينما حرص هذا الكتاب على أن يبقى بعيدًا عن الصراع فى الشرق الأوسط، فإن بعض الاستنتاجات التى توصل إليها عن عواقب نظرية الشعب المختار على العلاقات العنصرية سوف تنطبق على الموقف الإسرائيلى من العرب.

وفى الوقت نفسه، حاولت أمريكا أن تتجاوز الطبيعة المفردة والأحادية للهوية الوطنية الأمريكية، كما كانت منذ نهاية الحرب الأهلية، مثلاً. وقد فعلت هذا دون أن تتخلى عن رؤية نفسها كأمة مختارة. والإنجاز العظيم لـ «مارتن لوثر كنج»، كان أنه أوضح كيف يمكن للتصميم العظيم لأمريكا كأمة مختارة مفردة أن يحتوى داخله على روافد أخرى، جماعات أصغر ترتدى هى الأخرى عباءة المختارين، ولكنها تفعل ذلك بطريقة لا تنكرها على الكل. إنه نموذج للتلاقى فى نقطة واحدة، أو «شعب الشعوب». وهناك نموذج من الكتاب المقدس لهذا أيضًا؛ إذ كان الإسرائيليون القدماء فى الأصل اثنتى عشرة قبيلة، ولكنهم جميعًا كانوا تحت ميثاق واحد.

و«المشكلة الأمريكية»، إذ حقَّ للمرء أن يصوغ مثل هذا المفهوم، هى أنه بينما

كان مطلوبًا من هذه القبائل الاثنتى عشرة أن تعامل بعضها البعض بصورة عادلة وبلطف حسب الشريعة الموسوية، لم يكن مطلوبًا منها أن تتعامل مع القبائل غير اليهودية، أى القبائل الكنعانية التى تشاطرها العيش فى نفس المكان، بهذه الطريقة. حقًا إن أخلاقيات العهد القديم تبدأ تكتسب صبغة عالمية - وتطبق على اليهود وغير اليهود بالمثل - فى بعض الأنبياء اللاحقين. ويمكن الحكم على مدى عدم توفيقهم من خلال الحقيقة القائلة بأن يسوع كان ما يزال يرى ضرورة التبشير بمثال السامرى الطيب، الذى كان موجهًا بالضبط للسؤال القائل «من هو جارى؟» وتجاه من، غير «الناس الذين مثلى»، أتحمل مسئوليات أخلاقية؟ ومن الواضح أن يهود ذلك الزمان لم يكونوا يفكرون فى أن عليهم مسئوليات أخلاقية تجاه السامريين، وصدمتهم إلى حد ما قصة تقول إن السامريين يشعرون بأن عليهم مسئوليات أخلاقية تجاه اليهود.

وهكذا بينما يحتمل أن تكون أمريكا تحاول أخيرًا أن تتعامل بنزاهة مع الجماعات العرقية الثانوية بها، فإنها أمة ما تزال شديدة الوعى بالحدود التى تحدد «مفهوم الشعب» فيها. ويمكن تبسيط هذا بسهولة فى الاقتناع بأن بقية العالم موجود لمصلحة أمريكا. وهذا يختلف عن الدافع وراء الإمبراطورية البريطانية، التى كانت قائمة على أساس الرؤية - مهما كانت عدم كفاءتها فى الواقع - بأن بريطانيا موجودة لمصلحة بقية العالم. وقد يكون هناك بعض العزاء فى أن نعرف أن الشعب المختار الأصلى كان يناضل ضد نفس الصعوبة بالضبط. كانوا شعبًا مختارًا، ولكن لمصلحة مَن؟ ومنذ زمن مبكر، كان من الواضح أن هذا لمصلحتهم، ولكن بمرور الزمن، أشرقت الحقيقة القائلة بأن ذلك كان لمصلحة الإنسانية. وتحتاج أمريكا موعظة السامرى الطيب فيها، وهى سوف تستمع لها من شخص ما.

أعراض الشعب المختار، كما حددناها، تفترض أن الأمم التى يخضع تاريخها لذلك النموذج سوف تمر بدورة. فالإيمان والإخلاص سوف يتبعهما التراخى، ثم عبادة الأصنام والكفر (بالمعنى الدينى على الأقل)، وسوف يؤدى هذا إلى المعاناة

وسوء المصير؛ لأن العناية الإلهية تتدخل لتوقيع العقاب التصحيحى، (وليس هذا لجعل الرب مسئولاً عن سوء المصير؛ فكل ما يفعله هو رفع حمايته). وسوف ينهض الأنبياء لشرح ما جرى مجرى الخطأ ويحضون الشعب المختار على الرجوع إلى طاعتهم السابقة، وعندما يفعلون ذلك، يعودون مرة أخرى (بعد خلاصهم) لحالة النعمة التى كانوا فيها من قبل.

وسواء كانت لهذه النظرية فى التاريخ أية قيمة تنبؤية أم لا، فهذه نقطة فيها نظر. فهل سمح الرب حقّا لشعبه المختار (البريطانيين) أن يفقدوا مستعمراتهم الأمريكية عقابًا لهم على تجارة الرقيق؟ وإذا كانت تلك خطة الرب، كيف أمكنه فى الوقت نفسه أن يحرر شعبه المختار (الأمريكيين) من الطغيان البريطانى مكافأة على الإخلاص الأمريكى؟ إن القصتين لا تتماشيان سويّا فإذا ما كان الرب يريد لتجارة الرقيق أن تنتهى، لمَ منح الأمريكيين النصر فى حربهم من أجل الاستقلال؟

ويؤدى هذا إلى صعوبة أوسع تتعلق بالتعامل مع نظرية الشعب المختار، كما لو كانت نظرية حقيقية. وأحد الملامح الرئيسية فى التنميط البروتستانتى من وحى الكتاب المقدس، حسبما تم تطبيقه فى انجلترا وفى أمريكا على السواء، تمت المبالغة فيه إلى درجة الخيال؛ إذ لم يكن هناك حقّا مؤامرة بريطانية دفينة لحرمان الأمريكيين من حريتهم سنة ١٧٧٤م، ومن المؤكد أنه لم يكن هناك تخطيط دفين لفرض ملكية مستبدة، بل وبدرجة أقل، فرض الكاثوليكية الرومانية. وأساءت أمريكا قراءة الإشارات، كما أساءت بدرجة من التعمد إعادة طرحها، وكان الدليل فى متناول الجميع. وقصة التطور الدستورى فى كندا وغيرها كانت قصة تقدم ثابت صوب الديموقراطية والحرية تحت حكم الملكية، والواقع أن كندا كانت هى الأرض الموعودة بالنسبة للعبيد فى أمريكا؛ حيث كانوا يجدون الأمان بين ذراعى الملكة ڤيكتوريا. بل إن الهنود الحمر سكان أمريكا الأصليين اعترفوا بأنهم كانوا سيحصلون على اتفاق أحسن فى كندا.

و«الهروب من الطغيان» على النمط الوارد فى الكتاب المقدس بالنسبة لانجلترا، أثناء معظم القرن السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر، كانت

تحركه أشباح الكاثوليكية الرومانية، التى نُظر إليها على أنها الإمبراطورية الطاغية للمسيح الدجال. ولكن مفهوم أن الكاثوليكية كانت شيطانية فى الأصل كان قد أسقط بشكل يكاد يكون تامًا عند بداية القرن التاسع عشر، وكان أحد المؤثرات فى ذلك وصول آلاف من اللاجئين الكاثوليك الفرنسيين إلى انجلترا هربًا من الرعب. ولم يشعر الإنجليز فقط بالأسف من أجلهم، ولكنهم وجدوهم متحضرين، ومثقفين، ومتعلمين، ومسيحيين بشكل واضح، بكل وسيلة يمكن للپروتستانتى أن يعرف بها مهما كان تطرفه. وربما كان لديهم نظام سياسى أدنى، بيد أنه من الواضح أنهم لم يكونوا أعوان الشيطان. إلا أن الكاثوليكية فى فرنسا أواخر القرن الثامن عشر لم تكن تختلف كثيرًا عن الكاثوليكية التى برزت من إصلاح مجمع ترنت حتى قبل عهد الملكة إليزابيث الأولى؛ إذ كان هذا المجمع قد بدأ لكى يكون حدثًا محددًا، كان «مجمعًا لإنهاء المجامع»، والحقيقة أنه لم يتم عقد المجمع التالى حتى سنة ١٨٧٠م. وإذا كانت الكاثوليكية عند بداية القرن التاسع عشر لم تكن تجسيدًا للشر، فإنها إذن لم تكن كذلك قبل قرنين من الزمان.

واستمر كتاب فوكس الشهير «Book of Martyrs»، والذى أعيدت طباعته بانتظام طوال تلك الفترة، فى نشر رسالته المؤذية. وقد تحرر الكاثوليك سنة ١٨٢٩م، ولكنهم لم يكونوا محل ثقة حتى ذلك الحين. وعندما تم تكوين السلك الكهنوتى الكاثوليكى فى انجلترا سنة ١٨٥٠م، كانت هناك عاصفة من الاحتجاج ولقاءات جماهيرية حاشدة فى جميع أرجاء البلاد. ولكن دونما أن يقدم الكاثوليك تنازلاً واحدًا، سرعان ما مرت موجة البارانويا المعادية للكاثوليكية وتم إعادة نوع من التسامح الفاعل وإن لم يكن كاملاً. ولا شىء من هذا يبرهن على أن الكاثوليكية نظام مكتمل، ولكنه يوضح بالفعل أن المخاوف المتطرفة التى حكمت السياسات الإنجليزية والمشاعر الدينية الإنجليزية فترة تزيد على ثلاثة قرون - وترددت أصداؤها بإخلاص على الجانب الآخر من الأطلنطى - كانت مبالغة إلى درجة جنون الاضطهاد (البارانويا)، ولعبت نظرية الشعب المختار دورًا رئيسيًا فى الدفاع عن انجلترا ضد البابوية - المؤامرة المزعومة بين الكنيسة الكاثوليكية وأعداء انجلترا الأوروپيين - ليس أقله ما حدث زمن خلع چيمس الثانى و«الثورة المجيدة»

سنة ١٦٨٨م، وفى التمرد التالى من جانب أنصار المذهب اليعقوبى الذين شكّلوا مصدر تهديد مستمر. ولكن هل كان الأمر سيصبح كارثيّا حقّا إذا ما سُمح لچيمس الثانى أن يُكمل عهده؟ هل كان خلعه حقّا هو النقطة الفارقة فى التاريخ الإنجليزى حسبما قالت أجيال من مؤرخى الهويج الذين ساروا على درب ماكولى؟ أم أن سلخ الكاثوليكية كان ببساطة شرطًا ضروريّا لكى تؤتى أسطورة الشعب المختار سحرها، بكل ما فاض وتدفق من جراء هذا؟ هل كانت عظمة انجلترا مبنية حقّا على مثل هذه الأسس الخيالية؟

وبذلك فإن استنتاجنا النهائى عن نظرية الشعب المختار ينبغى أن يكون أنه بينما ما تزال هذه النظرية مؤثرة، فإنها ببساطة ليست حقيقية ـ ولم تكن أبدًا ـ والدليل التاريخى وحده يفندها، مهما نفخنا فى الموضوع اللاهوتى. وبينما حقنت حيوية قوية فى حيازة الأمتين اللتين آمنتا بها عن أنفسهما، فإن هذه النظرية جعلتهما يعتقدان أيضًا أن من حقهما السعى وراء مصالحهما الخاصة حتى لو تعارضت مع مصالح الآخرين.

مثل هذه الأمم مصدر تهديد محتمل للأمم الأخرى، بيد أنها سوف تشعر شعورًا مكثفًا بأنها على حق، وتقتنع بأن التبرير الأخلاقى لأفعالها يكمن فى وضعها الفريد، كما أنها لن تسمح للآخرين بمحاسبتها. إذا كان «ملاك يركب فى الريح الدوارة ويوجه هذه العاصفة» كما كتب چون بيچ إلى توماس چيفرسون، فإن استنتاج چورچ بوش(*) إذن، يكون صحيحًا: أن الوقوف فى وجه أمريكا هو مقاومة لإرادة الرب.

وبينما، لو كانت نظرية الشعب المختار حقيقية، كان يمكن الاعتماد على الرب لعقاب أمة أساءت استغلال وضعها المختار، كما عاقب العبرانيين القدماء فى بعض الأحيان، فإن مثل هذه التصحيحات لا تحدث فى العالم الحقيقى. وسفر الأمثال (١٦ : ١٨) قد يحذر من أن «قبل الانكسار الكبرياء، وقبل السقوط غطرسة الروح»، وقد يصدقه الأمريكيون وقد يكونوا حذرين بشأنه. وهذه قليلة، بيد أن

(*) قال ذلك فى خطاب تنصيبه رئيسًا للولايات المتحدة.

هذا ليس قانونًا عالميًا؛ إذ إن تأثيرات أمة قوية مقتنعة بأن الرب إلى جانبها لا يمكن أن تكون محدودة بذاتها. فهى يمكن غالبًا أن تعمل، صوابًا أم خطأ، وهى متمتعة بالحصانة. **والحقيقة، أنه فى الحالة المتطرفة، يمكن لحالة الشعب المختار أن تتحول إلى نزعة وطنية دينية حماسية يمكن أن تتحول إلى فاشية.**

.....

.....

وأفضل طريقة لضمان ألا يتحول هذا الاحتمال إلى واقع هى أن نكون مدركين له، وأن نتخذ الخطوات لمقاومته. وذلك أمر ضرورى للأمريكيين أنفسهم مثلما هو ضرورى لبقية العالم. ولكن ما إذا كانت لدى أمريكا وبقية العالم الشجاعة والحكمة المعادلة لهذه المهمة الرهيبة أمر آخر.

* * *

obeikandl.com